

التشكيل العجائبي والغرائبي في النص السردي
دراسة لرواية: امرأة حلم أزرق لعبد الحميد الغرباوي.

// سليم بركان.
جامعة جيجل-الجزائر.

لقد ارتبطت تكوينية النصوص السردية العربية عامة والمغاربية على وجه الخصوص ارتباطا وثيقا بمبانيات تاريخية وثقافية ومجتمعية، بحيث شكلت هذه البنيات المرجعية الحقيقية لهوية النص السردى المغربي، فطبع بها وتميز بها عن غيرها، بل وعرف غيرها، وهذا نتيجة التراكمات للثقافة الاستعمارية والمجتمعية، ذلك أن النصوص السردية المغاربية في بناها السردية والأسلوبية ركزت في التعبير عن طموحاتها التحررية، لتنتقل بعد ذلك إلى تبني تكوينية حديثة للنص، بحيث اعتمدت التوظيف الرمزي الأسطوري الشعبي وذلك بإدماج الأدبي بالمجتمعي وكذا السردى بالعجائبي السحري، من أجل إعطاء بعد جمالي وفني للنص من جهة وهوية حقيقية للكتابة الروائية المغاربية من جهة أخرى، هذا ما يجعلنا نعتقد أن حضور الأسطوري والتراثي في عملية التشكيل السردى للنص الأدبي يعطى له مشروعية القراءة والتأويل وذلك باستحضار العجائبي مسن خلال الأدبي، فالفعل السردى لا يمكن أن تستقيم فنية شكله ومضمونه إلا إذا كان متناسقا ومتماسكا في تشكيل جمالية العوالم الغرائبية مع الأدبية ووفق بنية دلالية كبرى هي النص السردى.

وفق هذا المنظور تسعى هذه المداخلة إلى تحليل نص رواية: امرأة حلم أزرق للكاتب الروائي: عبد الحميد الغرباوي، وذلك بمعاينة المعمارية التكوينية للنص من جهة ولظهور سيميات الشعبي العجائبي في السردى من جهة أخرى خاصة في التوظيف الجمالي للشعبي العجائبي لعوالم المرأة، مع محاولة الاعتماد على إستراتيجية قرائية تأخذ بعين الاعتبار تفسير ما تجلّي في النص وتأويل لرمزية هذه العوالم ومن ثم تحديد الرؤية للعالم التي يحملها نص الرواية.

الإطار العام لنص الرواية

صدرت رواية: امرأة حلم أزرق عن المركز الثقافي العربى بالمغرب، في طبعتها الأولى سنة 2006 لكاتبها عبد الحميد الغرباوي، تقع هذه الرواية في مئة وثلاثة وأربعين صفحة (143) من

الحجم الصغير مقسمة إلى خمسة وعشرين (25) قسما معنونا، فيطلعنا نص رواية الغرباوي على عوالم واقعية وأخرى سحرية، استهلها بموعد عودة شخصية "إدريس" إلى بلده - المغرب - ثم لقائه بصديقه البطل "محسن" الذي تناسى موعد عودته واللقاء به، ليحصل اللقاء ويتبدلا أطراف الحديث عن حالة الوطن السياسية والاجتماعية والثقافية، لينتهي اللقاء بفتور وجود من طرف "محسن" الذي كان غارقا في عوالم سحرية لم يجد لها من بد ولا حتى من سبيل لينسى ليتدخل إدريس ويسأله عن سبب هذا الفتور والضياغ، ليؤكد له "محسن" عن هذا المربع العجائبي الذي يقبع فيه منذ سنوات عدة مع امرأة، مارست عليه شتى أنواع العذاب إن على مستوى أيامه أو على مستوى لياليه، بحيث أصبحت تترأى له في المنام على هيئة امرأة موت لوفا أزرق ووجها أسود يقول السارد: "ألا تكون تلك المرأة التي أراها في المنام، وأحملها بين ذراعي هي الموت! أحمل بين ذراعي موتي" (1) وبين الحياة والموت وبين المرأة الحلم والمرأة الكابوس لم يجد "محسن" أين يوضع نفسه مع هذه الحياة المليئة بالعجيب والغريب لتصرفات هذه المرأة الموت، التي تحسن لعبة الظهور والاختفاء معه، ليقرر "محسن" البحث عنها مع عدم الاستسلام والخضوع لها ولا حتى الاعتراف بتلك العلاقة الزوجية الوهمية التي لا أساس ولا مرجعيات لها يقول السارد: "ينبتون زواجا مع أن كل حيثيات وشروط التثبيت منعدمة وشهود إن هم شهدوا على أكبر وأعظم ليلة عريدة وسكر ودعارة عرفتها منطقة القريعة في تاريخها بالواضع وليس بالرموز" (2) لقد رمت هذه المرأة المومس في مد رملي جعلته وحيدا لا يستطيع حتى فك ألغاز وجوده في عوالم المرأة الزرقاء الموت يقول: «وأجد نفسي وحيدا في مدى رملي يحده البصر أحر جسدا منهاكا... شمس لافحة تملئ عيني زرقا تعمي، الصمت خائق، ثقيل، يث في الأذنين طينا حادا موجعا، وأنتبه إلى أنني أحمل بين ذراعي امرأة عارية تضحك ضحكا فاجرا... تصطبغ بلون أزرق غريب، ويتوارى وجهها خلف قناع أسود» (3) لينصهر الواقعي في العجائبي لحياة "محسن"، ليصبح في خانة الهامش مع المرأة المركز، وبين المركز والهامش تتحدد هوية الأنا على الآخر أو هذا الأخير على الأول فالتوظيف العجائبي لعوالم المرأة أعطى لها مشروعية ممارسة المركزية على الآخر الهامش بحيث برزت المركزية للمرأة في النص من خلال الرؤية المأساوية التي أراد الناس بثها للرجل الآخر الهامش المهزوم، فلم يجد "إدريس" من عزاء يقدمه لنفسه ولـ "محسن" سوى الإشارة إلى التخلص منها، لكن "محسن" مهووس يتلقف آثار هذا الحلم الأزرق الذي اتخذ شكل امرأة زرقاء تركته يوما يتخبط في كيفية إصلاح ما يمكن إصلاحه ليؤكد له بعد ذلك أخذ المعارف بأنها لم تعد تصلح له ولا يمكن البحث عنها ولا حتى الحلم بها، ألفا باختصار شديد "مومس" يقول السارد: «كل الذئاب أكلت ونهشت من لحمها... من لم يأكل قضم قزمة» (4)، غير أن محسن لم يأخذ بعين

الاعتبار ما قاله أحد المعارف فراح يبحث عنها في المدينة وتحديدًا بالمشغل الذي تعمل فيه، فحدث اللقاء بعد الفراق الذي دام أكثر من عشرين سنة يقول السارد: «أخيرًا أقبض على عصفورقي النادرة وصممت على ألا أترك الفرصة تضيع من بين يدي... لا بد أن أخرج من هذا اللقاء بحل ينقذ ما يمكن إنقاذه قبل فوات الأوان»⁽⁵⁾، لكن دهاء المرأة الكابوس الكبير جعلته يخرج من هذا اللقاء مهزوما ومخطما، نتيجة رفضها تسوية أوراق الثبوتية لابنتهما ولتزيد من تعذيبه أكثر تعود إليه ليلا وتظهر له في منامه على هيئة كائن غير بشري محدثة رعبا له وفي مكان مخيف ومظلم، يقول السارد: «لست أدري من أين انبثق رجال عراة، حفاة، مقنعون يتقافزون أمامي ويدورون حولي كقردة هائجة... يصدرون أصواتا مكتومة، خشنة غريبة... كانت تزعق ضاحكة ضحكها الفاجر... وما بين الضحكة والضحكة أنه، وتأوه ينم عن استمتاع جارف، ودعوة إلى المزيد من العنف والقوة... وينطلق فجأة نداء استغاثة وأسمعها تناديني باسمي»⁽⁶⁾ وعن سحرية وعجائية هذه العوالم الزرقاء السوداء، التي تحلو للمرأة الكابوس ممارسة السلطة عليه، راح هو الآخر يتحسس دلالات هذا الأزرق الذي اضطبغت به وصبغت به كل الموجودات يقول السارد: «إنها تلك المرأة التي تملك حياتي نفصا ونكدا... بعد كل هذا... قد يصبح اللون الأزرق عدوا لي هذا اللون الذي أحب»⁽⁷⁾ ولتزيد من تشريده راحت أمام مفتش الشرطة تهمه بإهمال الحياة الزوجية يقول السارد: «و لتؤكد قولها، أخرجت من حقيبتها اليدوية صورة قديمة، وقدمتها للمفتش... عشرون سنة من العريضة والسكر والبغاء وأنا زوجها، كل الرجال الذين امتطوا مؤخرتها، بصقوا بين فخذيهما عجتهم في عجينة واحدة هي أنا»⁽⁸⁾ فعلى الرغم من الزج به في السجن نتيجة إهماله للحياة الزوجية إلا أنه بقي وفيها لها وحائرا من شجاعتها ودهائها في تلفيق الحقيقي بالوهمي وما هو سردي بما هو عجائبي، فبين المكانين الواقعي والسحري، يجد "محسن" نفسه مكبلا ومعذبا ومخطما لا لشيء سوى أنه حاول اختراق الخطوط الحمراء لعوالم المرأة المومس والتي لا بد أن تبقى من المحرمات عليه بل على الآخر، كما لا يمكن البتة المساس بها ولا حتى الحديث عنها يقول السارد: «ليس للمرأة سوى عالمه والرجل يسعى دوما إلى فرض كيانه في عالمها هذا، ولكن سعيه يبيء بالفشل الذريع... ويبقى عالم المرأة السري عصيا على المعرفة بالنسبة للرجل»⁽⁹⁾ فانصهار الواقعي في العجائبي وكذا المرأة الحلم في عالم المرأة الكابوس، يقبع الآخر في مد وجزر، بحيث لا يمكنه تحديد عالم سوي بين الأنا والآخر، ذلك أنه لم يجد تفسيراً وجوديا لهذا الكائن اللطيف القوي الجميل المخيف في الوقت نفسه، فبين النسيان والتذكر لمسارات الحياة البشرية الواقعية والعجائية يجد "محسن"، نفسه مع "ادريس" أمام البحر، الذي يمنحه في كل مرة فرصة ممارسة الحياة بواقعيتها وغرابتها، وبحلول موعد سفيرة "ادريس" إلى "باريس" لم يجد من سبيل

ليكفر به عن سبب ما جر لصديقه سوى إهدائه بعض القوارير الباريسية، ليعود "محسن" إلى ذلك المقهى الذي افتقده وافتقد معه بعض وجوهه التي ألفها وصاحبها نتيجة دخولهم عوالم المرأة المومس، فمرض "الركراكي" أكد "لمحسن" أسباب هلاكه وهو المعاشرة والفوضوية لهذه الكائنات الليلية التي تحسن خشو الأمراض والفيروسات، وبهذا الرؤية المأساوية، يجد البطل نفسه مجبر على تدوين وكتابة قصة مدججة بالواقعي والعجائبي بطلتها امرأة مومس يقول: «الليلة أبدأ الكتابة» وبهذا يكون النص رواية الغرباوي مفتوح على نهاية البداية لقصة كان يفترض أن تكتبها امرأة لأنها أدري بعوالمها العجائبية والغرائبية ويقرأها رجل عليها تساعده الدخول إلى هذه العوالم، لكن ما حصل في نص الرواية أن كاتبها وساردها رجل أراد المحافظة على مركزته بسرده هذه العوالم المتخيلة من امرأة إلى امرأة حلم أزرق وبهذا أصبحت السرد في نص الغرباوي مقلوبة بعدما كان أنثويا أصبح رجاليا في نص هذه الرائعة.

الإطار الدلالي لنص العنوان:

يعتبر نص العنوان جزء لا يتجزأ من العمل الأدبي، فمهارة اختياره على مستوى اللفظة والسياق يتطلب كفاءة لغوية ودلالية فذة، بل ومعرفة خاصة بأسرار اللغة وبجمالياتها فكما أن نص العنوان لم يعد نصا تبعا مسلوب الإرادة والدلالة، بل وبحكم تكوينية وظيفية تتناسب ومؤهلاته الدلالية والتداولية، والسحرية الحرص على دلالة خطاب نصه وعلى موقعه ونوعية لغة حروفه، فالذي لا شك فيه، هو أن قيمة النص الأدبي ترتبط بقيمة مقروئته بالارتكاز على إستراتيجية خطاب ونص العنوان الدلالية والتداولية والسحرية لما كان للعنوان هذه الأهمية، فقد أولت الدراسات في علم العنوان كذا السيميائية أهمية كبيرة، إن على مستوى موقعة أو دلالاته أو تداوليته، وذلك باعتباره مفتاحا إجرائيا في تفسير وتأويل النص الأدبي، بل أداة لممارسته يعتمد عليها كل من القارئ والدارس للولوج إلى أغوار بناء العميقة، قصد استنطاق خطابه وتأويل لغته عبر تفكيك عوالمه الداخلية والخارجية ومن ثم إعادة تركيبها ليقرأ النص من خلال توظيفها للأشكال الأدبية الأخرى، وهذا ما أقره "بارث" باعتبار أن تكوينية العنوان تأخذ شكل: «أنظمة سميولوجية، تحمل قيما أخلاقية واجتماعية وإيديولوجية، فاللباس الإماء، اللوحة الإشهارية، هي أدلة تعطي فكرة عن الوضع الاجتماعي والأخلاقي والإيديولوجي»⁽¹⁰⁾ بمعنى أن التكوينية الدلالية لنص العنوان قد تأخذ أشكالا دلالية سواء أكانت اجتماعية أو ثقافية أو حتى أسطورية سحرية، يصل إلى احتوائها القارئ من خلال تفكيك لغة نصه ومن ثمة تفسير وتأويل خطاب النص الأدبي.

ولعل ما يستوقف القارئ في نص رواية "الغرباوي"، هو لغة نص العنوان: "امرأة حلم أزرق"،

هذا التركيب اللغوي الاسمي المدجن بدلالة استفزازية، إنه يعطي انطبعا من نوع خاص وهو يواجه القارئ الاستهلاكي أو النموذجي، بتلك الضبابية، والعبثية والعجائية من جهة وعلى الكثافة الرمزية لتكوينية لغة، لكن بعد ربط لغة نص العنوان بعوامله الحقيقية وكذا السحرية العجائية، تتبدد الدلالة في طور الانفتاح والاتساع أكثر خاصة على الإشارة إلى بنية حضور وتظهر هذه التلوينات العجائية والسحرية في متن النص الروائي، والتي أحسن "الغرباوي" عجنها مع السرد لينتج لنا عنوانا أسماه بـ: "امرأة حلم أزرق"، فهذا التشكيل اللغوي الذي اعتمده "الغرباوي" مشبع بالرمزية الغرائبية والعجائية، أعطى لنص العنوان مشروعية ممارسة سلطة رمزية مكثفة ومنفتحة على التفسير والتأويل للعجائي والغرائبي، لزرقه الحلم على المرأة، وعلى مستوى آخر من القراءة التفسيرية يوحى على خطية الزمن واتبعائه من عوالم سحرية من جهة وعلى تجدد سلطة رمزية للمرأة كانت في وقت سابق متوارية في عوالم محرمة من جهة أخرى، بل ومنعقدة نتيجة القهر الذي يمارسه المجتمع والرجل على الآخر، لكن توظيفه في عوالمه السحرية أعطى انطبعا أولويا بممارسة حق التهميش والتنكيل به نتيجة تعنته واعتقاده بأن المرأة كائن جميل ناقص، ولشخذ سلطة الحضور الأنثوي في نص الرواية اعتمد "الغرباوي" تشكيلا عجائبا سحريا لهذا الكائن الضعيف القوي، ليسترد وجوده ويمارس من ثم سلطتها عليه، حيث نكلت به وأذاقته العلقم نتيجة تحديه دخول عوالمها الغريبة، وأصبحت بذلك المرأة الرمز الحلم الكابوس لهذا الرجل الرقم أو الخطأ، ففي نص عنوان "الغرباوي" نتحسس تلك المركزية التي تتمتع بها المرأة الحلم الكابوس وعلى الهامشية التي اتسم بها الرجل، وبين المركزية والهامشية انصهرت القيم الرجولية مع الأنثوية في عوالم قل ألها سحرية وعجائية، وهذا ما يطالعا به نص "الغرباوي" عن لقاء "محسن" بامرأة سادية أحسنت الأفراد به في عوالم سحرية غريبة مديقة أياه أشكالا من السحرية والعذاب يقول السارد واصفا هذه العوالم العجائية: «شمس ورمال تطوقني من كل الجهات، وصمت شامل، لا رفر ف لجناح، حتى الزواحف لا عشخشة لها، كأنما يجثو على المكان رعب مميت... وبغثة يمزق حجاب الصمت قهقهات ضحك عال وتنزل على ظهري وكثفي سياط جارحة... وأنتبه إلى أنفي أحمل بين ذراعي امرأة عارية تضحك ضحكا فاجرا، عارية، زرقاء... امرأة بين ذراعي ! عارية! اصطبغت بلون أزرق غريب، ويتوارى وجهها خلف قناع أسود وأنا كالمحكوم عليه بالأشغال الشاقة»⁽¹¹⁾ إنه العالم الأخرى السحري الذي تلقى فيه البطل جزاءه نتيجة تجبره على الآخر واختراقه للخطوط الحمراء لعوالم المرأة. ولقد تبدت تكوينية الصيغة اللغوية بنص العنوان بأسماء نكرة متتابعة فبين الاسمين الأولين تحققت الدلالة أما اسم الصفة فقد كسر خطية الدلالة وفتح للقارئ مجالا واسعا لتأويل هذه الأسماء بنص العنوان، بعبارة أخرى أو إلحاق الزرقعة

بالحلم أولا والمرأة ثانيا يوحى فيما يوحى إلى أن المرأة في عرف الرجال تبقى الحاملة لمتعة الشقاء بل وتعدى أن تصبح الصديق العدو بل وأكثر من ذلك ألها الكابوس الأمدى للرجل، خاصة حيثما تتخلص وتحرر من القيود الاجتماعية وكذا الحدود الشرعية، فإذا عدنا لفك معاني الدلالات المعجمية لاسم المرأة، فنعني بها ذلك الكائن الحي البالغ الناطق الأنثوي، أما معنى اسم كلمة حلم فهو ما يراه النائم في نومه، بمعنى تلك الرؤى الوهمية والسحرية والمستعصية الوقوع في هذا العالم، والتي يحاول الفرد تجسيدها إلا في عوالم عجائبية وغرائبية، وهذا ما نتحسسها في نص عنوان الرواية، أما معنى اسم أزرق، فهو ذلك اللون الذي يصنف ضمن مجموع الألوان الباردة، إنه لون السماء، الماء، البحر إنه سواد العين فمن هذا وذاك تبدي دلالة الزرقاء التي ألحقت بالمرأة والحلم في ألها الهم والغم، إنها باختصار شديد الخصومة والمصيبة الكابوس الأسود المقنع، فوق هذا المسار الدلالي لدلالة الزرقاء على المرأة والحلم تتحقق منطقية نص عنوان الرواية مع نص منها، فإضفاء صفة الزرقاء عليها تصاعدت الدلالة بل وتكاثفت أكثر لتشير إلى مصائر غريبة وعجيبة لذلك الآخر الذي أراد أن يحلم في دنيا المرأة فكان له ذلك لكن وفق ما أرادته هي وفي عوالم سحرية وواقعية أحسن "الغرباوي" عجنها في نص جميل وعجيب وغريب هو: امرأة حلم أزرق، فبين المرأة الموس والمرأة الزرقاء الكابوس، بمعنى بين الحقيقة المرة والواهم السحري تتجلى تلك المأساة التي عاشها البطل "محسن" التي انتهى إليها وعليها بدأ ممارسة الكتابة عنها.

لعل طبيعة التشكيل اللغوي والسردى الذي اعتمده "الغرباوي" في نص عنوان روايته منطقي في مستواه النحوي والمعجمي وسحري وغرائبي في مساره السردى، ذلك أن خطاب نص العنوان يحيل على العجائبية بشكل كبير في متن نص الرواية، فامتزاج السحري بالأدبي أعطى للنص "الغرباوي" مشروعية القراءة والتأويل، بحيث أن التشكيلات التي تلونت بها شخصياته خاصة المرأة الحلم الأزرق، أعطت للنص جمالية وفنية رائعتين ارتسمت عبره رؤية للعالم أحسن الغرباوي التعبير عنها عبر توظيف هذه العوالم السحرية والغرائبية في السردى فاصباغ المرأة بالزرقاء يعني ألها تمثل ذلك المحرم على الآخر هذا ما جعل صيغة لغة نص العنوان امرأة حلم أزرق مدعاة للفضول لمعرفة الخبايا العجيبة وكذا للمصائر السحرية لكل من الذات والآخر وهو في جانب آخر استفزازي في إساءات دلالاته المختلفة ومحرض على اكتشاف مضامينه السحرية وتشكيلاته السردية وأخيرا لرؤيته الكونية التي أهلت للقراءة والتأويل ليصبح بعد ذلك نص عنوان رواية الغرباوي، الأصلح لغة الأمتع نصا والأعجب تسريدا والأغرب خطابا والأعمق رؤية العالم وهذا بعد أن كان يبدو غريبا ومنه جاء خطابا تصويرا لرحلة سحرية مريرة جميلة عاشها البطل في دهاليز المرأة التي اصبغها الغرباوي بألوان

مختلفة وعجيبة بين المرأة والكابوس وجد البطل نفسه في مأساة جميلة دونها للآخر ومنه جاءت دلالة نص العنوان تحمل رؤية كونية للآخر مفادها انهيار المركزيات الذكورية وإحلال المركزيات الأنثوية في هذا العالم القدر يقول السارد: « الرجل يسعى دوماً إلى فرض كيانه في عالمها هذا لكن سعيه ييؤء بالفشل الذريع »⁽¹²⁾

الإطار التقني للأصوات السردية في نص الرواية :

جاء في "لسان العرب" أن معنى السرد لغة هو: « تقدمه شيء إلى شيء بمعنى تأتي به متسقا بعضه في أثر بعض متتابعاً، وسرد الحديث ونحوه يسرده سرداً تابعه، وفلان يسرد الحديث سرداً إذا كان جيد السياق له »⁽¹³⁾. بمعنى أن مفهوم السرد ينحصر في تتابع الأحداث مهما كان جنسها، والتي يقوم بسردها السارد من أجل إنتاج نص قصصي مشتمل على ملفوظ أو خطاب سردين وعلى حكاية تشتمل على جملة من الأحداث تدور في زمن ومكان محددين وبشخصيات متخيلة من السارد.

تكوينية الأصوات الساردة في نص الرواية :

لعل ما نسجله على نص رواية امرأة حلم أزرق ذلك البناء التركيبي المحكم لسردية العوالم الواقعية والعجائية والتي مثلتها أصوات لشخصيات ساردة لحياتها الشخصية والغرائبية، على السواء كما أن كل الأصوات الساردة في نص الرواية اكتفت بتحسيد وظيفة سردية واحدة ألا وهي إنارة كل الجوانب المجتمعية والسحرية لقصة نص الرواية، كما نلاحظ ذلك التخلي الكلي والمطلق للمؤلف عن جميع مسوغات الخطاب الذاتي لفائدة شخصية خاصة البطل منها، بمعنى أعطى لهم الحرية الكاملة في التعبير عن رؤاهم وتكوين رؤية الكونية، هذا ما جعل الصيغة السردية تتجنى للأحادية باعتمادها في التكوين السردى على ضمير المتكلم لسرد الأحداث والتعليق عليها في آن واحد بل أن الغرباوي ترك لهم حق الممارسة الديمقراطية التعبيرية مما جعل شخصيات نص الرواية على حد قول "بمضى العبد": «... تحقق نوعاً من ديمقراطية التعبير داخل الرواية»⁽¹⁴⁾ فباشرة ومع الفاتحة النصية، يوجهنا السارد إلى وجود راوي في الحكاية سرد قصة لصديقه المغترب، وبذلك انفتح نص الرواية على صوت سردي يحكي لنا أحداث عاشها مع شكل بشري لطيف تحول مع مرور الأيام كابوساً أسوداً أذاقته أشكالا من العذاب والفراق يقول السارد: « صرخت في وجهي ذات يوم، مهددة سأدمر حياتك سأحوّلها جحيماً لا تطيقه سأجعلك تذوق مرارة النوم ... سأجعل جلدك يزرق »⁽¹⁵⁾ ولعل تقنية السرد الموضوعي في نص الرواية هي التي اعتمدها الغرباوي في بناء نصه ذلك أن الأحداث التي عاشها

البطل السارد وعرضها كما وقعت له سواء في يومياته أو في لياليه، وتبعا لظهورها في أفق القصة. معنى آخر وكأن رمزية أحداث القصة تبدو إلى حد ما مسرودة من تلقاء نفسها وهذا ما يتلمسه القارئ في توظيف الغرباوي لتلك البنيات السحرية التي ساهمت مجتمعة في تكوينية الحدث الروائي، إضافة إلى تنوع رمزية البناء الزمني والمكاني مع إعطائه بعدا عجائبيا وآخر غرائبيا جعل نص رواية الغرباوي ينفلت من العوالم الواقعية للمرأة الحلم ويمنح إلى العوالم السحرية للمرأة الوهم أين تختل الموازين وينعدم المنطق وحكم الفعل ويمتزج السردى بالعجائبي، ليصبح عسيرا على القارئ احتواء هذه العوالم من جهة، وعلى فهم تكوينية منطق سردها في نص الغرباوي فإعطاء البعد السحري لهذه البنيات السردية منح لنصه مشروعية القراءة والتأويل لبنية حكائية أحادية أنتجت بنية دلالية جاءت وفق رؤية للعالم في نص الرواية، ذلك أن: «نشاط الحكيم لا يتوقف عند حد السرد البسيط... إنما يرمي في آخر الأمر إلى تكوين وحدات ذات معنى من تلك الأحداث المتفردة»⁽¹⁶⁾. أما عن التوظيف السحري في السردى نص الرواية يقول السارد: «ولست أدري من أين انبثق رجسالة عراة حفاة مقنعون يتقافزون أمامي ويدورون حولي كقردة هائجة أطلقت للتو من أقفاصها يصدرون أصوات مكتومة خشنة وغريبة وعلى حين غرة انقضوا على ذراعي وانتزعوا المرأة الزرقاء كانت تزعق ضاحكة ضحكها الفاجر»⁽¹⁷⁾. ومنه جاء نص الغرباوي مكثفا دلاليا وعجيبا مما جعل قراءته وتأويل بناء السردية مستعصية على قارئ استهلاكي الذي يتخلى في كثير من الأحيان عن فك الرموز والإشارات لهذا التشكيل السحري للنص.

إن نص الغرباوي يشترط قارئاً له إلمام بالتراث الشعبي العربي فالوقوف عند العلامة اللغوية (امرأة زرقاء) في نص الرواية قد لا يعني لبعض القراء شيئا لكن عند البعض قد تأخذ عدة معاني ودلالات وبذلك تفتح دلالة رؤية النص على قراءات متعددة ومنتجة، تشير إلى ذلك التحول من امرأة حلم إلى حلم أزرق أسود كما أن تسريدها لهذه الأمكنة والأزمنة المرعبة تعني للقارئ المنتج حضور زمان ومكان عجائبيين بل وأسطوريين تجليا في فضاءات وهمية وأخرى عجائبية وأثبتنا على ثنائية الحلم والكابوس، أين ينعدم المنطق وتلبس الحقيقة بالوهم وبل يصبح حتى المستحيل ممكنا وهذا ما نتحسسه مع نص الغرباوي في تصويره لسورالية زرقاء المرأة يقول السارد: «أنا م فأراه في المنام يصبح الأماكن والوجوه والأشياء... أزور معرضا تشكيليا، فيخرج إلي لسانه من قلب اللوحات، مرة ومرة بمد يديه في عطف يناديني إليه»⁽¹⁸⁾. فهنا نلاحظ ذلك التوظيف الفني للعجيب والغريب في تسريد الأحداث خاصة في وصفه للأزرق واصطباغ المرأة الحلم به، وكأن نص الغرباوي ينبعث من اللاوعي وتحت سلطة المرأة على الرجل ففي لحظة زمانية سحرية تصبح زرقاء

المرأة تتكلم معه وتمد يديها، إليه فيبدو واضحا هنا أن لحظة السرد عجائية تتزامن مع لحظة وقوع الحدث الروائي، فيسرد البطل ما وقع له في تلك العوالم السحرية مع تلك المرأة الخطأ الوهم، كما نلاحظ على نص "الغرباوي" أنه لا يدخل لنا ساردا جديدا يحكي لنا حكايته الخاصة - باستخدام تقنية التضمين - لكن يدخله من أجل استكمال بناء الرؤية الكونية التي أراد تمثيلها الغرباوي في نص روايته، وفي جانب آخر لإيضاح بعض الأمور الخفية من القصة المجهولة من قبل السارد البطل وهذا ما نتحسسه في شخصية إدريس فهذه التقنية السردية نجدها حاضرة أكثر في النصوص التراجيدية الإغريقية، بحيث تشارك كل الشخصيات في إنارة الحكاية، ذلك أننا لا نكاد نعرف في نص الرواية عن شخصية "إدريس" إلا بما يتصل بموعد الذهاب والإياب إلى باريس أو من خلال القوارير الباريسية التي تنبئ عن موسم العودة يقول السارد: « يهديني كيسا أنيقا من بلاستيك، كأنه خارج للتو من أحد متاجر باريس الفاخرة، ويرجوني ألا أكشف عن محتواه إلا في البيت » (19)، فمن خلال هذا المقطع السردى نتحسس القيمة التواترية لشخصية إدريس وفي حضوره الرمزي في انفتاح النص على بداية الحكاية في نص الرواية فبمجرة تسلم للقوارير تبث لنا تلك النهاية البداية على تدوين وكتابة قصة كان فيها محسن البطل والضحية في الوقت نفسه وبهذا بقي نص الرواية مفتوحا ينبنى على تشكل نص في طور الإنجاز.

ومع النهاية البداية لنص رواية "الغرباوي": امرأة حلم ازرق نقول أنه أحسن عجن السردى بالشعبي العجائبي في نص جميل لغة وسردا، ذلك أنه أنقن المزج بين أسلوب الحكى الواقعي وبين أسلوب الحكى الشعبي السحري، هذا ما جعل نصه أصيلا في تكوينيته وحديثا في عملية تشكيكه الإبداعي الأدبي، وهذا ما حاولنا تلمسه في هذه المداخلة للعجيب والغريب في سردية نص الرواية والذي وظف بنايات سردية محشوة بالسحري الواقعي والذي مثلها خطاب نص العنوان خاصة وخطاب نص الغرباوي عامة فامتزج بذلك العجائبي بالأدبي في نص شهى ولذيذ.

الإحالات:

- 1- عبد الحميد الغرباوي. امرأة حلم أزرق، المركز الثقافي العربي ط 1. المغرب 2006 ص: 65
- 2- الرواية ص: 62
- 3- الرواية ص: 62
- 4- الرواية ص: 41
- 5- الرواية ص: 78
- 6- الرواية ص: 85.86
- 7- الرواية ص: 30
- 8- الرواية ص: 106
- 9- الرواية ص: 111
- 10- انظر. عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي .د.م.ج. الجزائر 1995 . ص 277
- 11- الرواية ص: 21.22
- 12- الرواية ص: 111
- 13- انظر. ابن منظور لسان العرب، دار الصادر، بيروت. 1955 ص 79
- 14- يحيى العيد. الراوي. الموقع. الشكل. مؤسسة الأبحاث العربية . ط 1. بيروت 1986. ص 177
- 15- الرواية ص: 15
- 16- عبد المالك مرتاض. البنية الزمانية في القص الروائية د.م.ج 1993 . ص: 16
- 17- الرواية ص: 85
- 18- الرواية ص: 09
- 19- الرواية ص: 133